العنوان:	مشاكل الرى بالجنوب المغربى من خلال وثائق غير منشورة القرن الثامن عشر
المصدر:	مجلة أمل
الناشر:	محمد معروف
المؤلف الرئيسي:	حنداين، محمد
المجلد/العدد:	مج 8, ع 24
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2000
الشهر:	اكتوبر
الصفحات:	94 - 113
رقم MD:	409223
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink, AraBase, HumanIndex
مواضيع:	الاراضى الزراعية ، المياه ، الرى ، المغرب ، الجفاف ، الزراعة ، الموارد المائية ، القرن الثامن عشر ، التغيرات المناخية ، القبائل البربرية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/409223

مشاكل الري بالجنوب المغربي
من خلال وثائق غيرمنشورة (القرن الثامن عشر)

محمد حنداين*

مدخل

من المعلوم أن تاريخ المناخ عرف تقدما كبيرا في أوربا ، حيث اهتمت مدرســـة الحوليات بهذا الموضوع منذ منتصف هذا القرن . و ألف المؤرخ الألمـــاني Hans von Rudloff في هذا الباب مؤلفا حول تاريخ مناخ أوربا من 1670إلى 1965 . كما ظهرت سلسلات من الأبحاث المتعلقة بتاريخ المناخ، فسرت على أساسها جوانب من تاريخ أوربا في القرن السابع عشر(1)، و أعطت تفسيراهم تلك، للتاريخ نكهة منهجية جديدة .

أما بالنسبة للمغرب ، فإذا استثنينا بعض الدراسات الأجنبية حول المجاعـــات و أبحاث ذ : التريكي و روزنبيرجي و أطـــروحة محمد الأمين البزاز حول الأوبئة ، فإن

* أستاذ باحث أكادير

ماوصلنا عن تاريخ المناخ بالمغرب لا يعدو أن يكون شذرات حول المجاعة ، و انحباس الأمطار أو فيضانات هنا أو هناك ، في سنة من السنوات ، والدعوات في المساجد عند احتياج الناس إلى المطر(2).

و من أجل المساهمة في تحقيق تراكم معرفي في هذا المجال ، ارتأينا أن نثير أهمية موضوع تاريخ المناخ بسوس و الجنوب المغربي لارتباطه بتاريخ الري بالجنوب ، وفي حدود ما توفر لدينا من معلومات .ومما لا شك فيه أن إثارة هذا الموضوع له ما يبرره نظراً " لأن المناخ يمثل إلى جانب التربة والسطح أحد العوامل – وإن كان المناخ أهمها – التي تكيف طرق معيشة الانسان في أية بقعة "(3). و بالخصوص في المجتمعات التي مازال فيها ثقل العوامل الطبيعية كبيراً ، عكس المجتمعات الأوربية التي تحكمت أكثر في الطبيعة و خففت بذلك من آثارها .

حول تاريخ المناخ بسوس(ملاحظات أولية)

1.1 – مناخ المغرب : من الرطوبة إلى الجفاف

في غياب الوثائق وقلة الأبحاث المتعلقة بالمناخ بالمغربclimathologie فإنه لا يمكن الخروج إلا بنتائج مؤقتة و نسبية . و مع ذلك يمكن أن نستشف من بعض الدراسات و الأبحاث الأركيولوجية أن المغرب ربما كان ينعم بمناخ رطب في الفترة القديمة . و يشير أحد الباحثين – في هذا الصدد – إلى أن "العثور على نقوش للفيلة [في الاطلس الكبير] ووجود غابات كثيفة ، تدل على سيادة مناخ رطب "(4). كما] وخاصة المناخ المطير (5). أن" وجود نقوش أخرى لفرس النهر تطرح مشكل التغيير المناخي الطارئ [في الصحراء و لعل هذه الرطوبة استمرت « ...حتى جفاف الثلث الأول من العصر الحجري المصقول *Le Néolithique* » (6). و يستفاد من تقرير حانون حول رحلته لسواحل المغرب ، أن المغرب مايزال يعرف بعض مظاهر المناخ الرطب(7).بل هنالك من الباحثين من أشار إلى احتمال استمرار رطوبة شمال إفريقيا حتى العصور الرومانية(8).

و من يتصفح بعــض مــصادر العصر الوسيط المتعلقة بجغرافية المغرب ، سيجد بعض مظاهر هـــذه الــرطوبة ، ما تزال مستمرة . فهذا ابن حوقل (ق10/9) يــقارن بين فيضان وادي النيل ونهر سجلماسة في الـــــصيف(9). ويصــف صـــاحب مؤلــف الاستبصار (ق11) نهر سوس بأنه" نهر عظيم "(10).كما يصف الجغرافي المغربي (ق13) نهــر ماسة "بأنه كان يأوي سفن البرتغاليين إلى الداخل "(11). كل هذا يدل على أن المغــوب كان لا يشكو من قلة المياه و ندرة التساقطات .

بيدا أن المناخ أخد في التغيير في العالم مع نهاية العصر الوسيط . و هذا مــا اعتقده "كل من Petterson و Hundington اللذين أشارا إلى « أن النصف الأول مــن القرن الرابع عشر، يمدنا بمثل واضح جداً لعصر ، قد بلغ فيه شدود المناخ ذروتـــه في نصف الكرة الشمالية (...) و يسوء منذ حوالي 1200م بل أصبح أكثر قساوة في القــرن الرابع عشر "(12). و قد عم الجفاف دول جنوب البحر الأبيض المتوسط ، و امتـــد إلى المغرب . و تتحــدث النصــوص عــن جفــاف ســنوات (1442/1441) وســنوات (1469/1468) و أدى إلى وفاة آلاف الاشخاص(13) . ثم استمر و اشتد بعـــد ذلــك ليصبح أكثر قساوة، و يمتد أطول مدة .

و في الــنصف الثاني من القرن 17 عاد الجفاف لينشر الوباء في حوض البحـــر الأبيض المتوسط و أوربا . "فمن 1670 إلى 1700 تفشى الوباء بقوة في تونس والجزائــر وظهر بمصر سنة 1718 ..."(14) كما انتشر كذلك في أوربا . فقد أحصى أحد المؤرخــين السكندنافيين وهو Gustav Utterstrom ثماني سنوات من الكوارث المناخية بأوربـــا ، خلال القرنين الســـادس عشــر والســابع عشــر وهــي ســنوات: 1596/1603/ 1630/1649/1652/1675/1677/1690(15).

وعــرف المغرب في نفس الفــترة تقريباً (ق 17) أربــع فترات من الجفاف ، تمتد مـــا بــين ســنتين إلى ثــلاث ســنوات وهــي (1519/1520) و(1521/1522) و(1532/1533) وفترة (1597/1607) المــعروفة بالطاعون العظيم . و ترك لنـــا عبــد

الـــرحمان التمنارتي وصفا دقيقا لآثار جفاف سنة 1603/1012 في ســـوس ، وهـــو يـــصف تارودانت حيث يـــقول : " ...دخلت الحاضرة [تارودانت] فرأيت مجـــالس الكبار ومـــلاعب الصغار خاوية كساها الأيحاش (...) وكان أكثر ما وقـــع الوبـــاء في الشباب ..."(16) .

ففي السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر، عادت سنوات الجفـــاف لتنشـــر ظلالها على المغرب. فقد توصلنا من خلال بعض المصادر ، أن ما بين ســنوات 1088 إلى 1100فقط ، منها خمس سنوات من الجفـــاف (17). (1094/1091/1090/1089/1088) أي بمعدل 12/5 .

2.1 – دورات الجفاف في القرن الثامن عشر بسوس

لا تختلف منطقة سوس كثيرا ، عن باقي الأقاليم المغربية ، من حيث تعرضـــها لسنوات الجفاف ، وما يصاحب ذلك من مخلفات الأمراض والأوبئة ، التي تؤثر علـــى سلوك الناس أفرادا وجماعات تجاه محيطهم . ففي سنة 1677/1088 حل الجفاف بالمغرب ، واستمر اربع سنوات .حيث لم يتراجع إلا مع نهاية 1680/1091، ليعود من جديد مـــع حلول سنة 1682/1093 واستمر حوالي سنتين. « ... لقد بدأ الطاعون بتطوان 1088/ 1677 » . و في السنة الموالية ، « حل بفاس واستمر الجفاف والغلاء بســـبب تـــأخر الامطار سنة 1680/1090، وبلغ القمح 40 أوقية والمد من نحو صاع ونصف (18) ».

وقد امتد هذا الجفاف إلى سوس ، وانـــتشرت الأوبئة بسببه بين الناس ومات بها خلق كبير .و يقول المختار السوسي عن هذه الآفـــة :" ...و وجدت [في إحـــدى خزائن سوس] أيضا أن الوباء كان سنة 1090 ، وأن فيه موت الصالح الناصح ســـيدي عبدالله بن عثمان التانلتي اليعقوبي يوم السبت 1090/3/25 وهناك أيضـــا عبـــدالله بـــن أحمد بن محمد اليعقوبي(19)". وعادت المصادر لتتحدث من جديد عـــن عـــودة الجفاف سنة 1093و1094 /1682 حيث تأخر المطر وبلغ سعر القمح الدرهم الشـــرعي للصاع النبوي (20). وبعد ذلك انتعشت الوضعية نسبيا في سو س ، بعد تعيين محمد العـــلم

بسوس سنة 1698 وصل الرخاء قمته حسب الناصري إذ يقـــول : 1130...انشــغل السلطان ببناء قصوره وغرس بساتنه والبلاد في أمن وعافية ، تخرج المرأة والذمي مـــن وجدة إلى واد ي نول ، فلا يجد من يسألهما من أين وإلى أين ، مــع الرخاء المفرط ، فلا قيمة للقمح ولا للماشية ، والعمال تجبي الأموال والرعايا تدفع بلا كلفة ."(21) وفي ســـنة 1721/1134 عاد الجفاف من جديد واستمر أربع ســـنوات ، ولم يتوقــف إلا ســنة 1724.و"تسبب في غلاء شديد ومجاعة رهيبة بين السكان "(22). و يضيف صاحب رحلة الوافد في وصف هذا الجفاف بقوله : « ولما توادعت مع شــيخنا عـــام 1133 (1721) رجعت إلى القبيلة عند الوالد واشتد الهــــرج بالنـــاس والمـــوت مـــن كـــثرة المجاعـــة والمســــــــغبة وغلاء الزرع "(23)

جدول السنوات الجافة حسب بعض المصادر التاريخية

ما بين 1672–1727

السنوات الجافة	السنوات التي يعتقد أنها متوسطة أو جيدة
1677	1672 إلى سنة 1676
1678	
1679	
1680	1681
1682	
1683	
	1684 إلى 1720
1721	
1722	
1723	
1724	1725 إلى 1727

و يبدو من خلال هذه المعلومات التي استخلصناها من مختلف المصادر ، أن مدة سنوات الجفاف في فترة ما بين 1727/1672(55سنة) و التي تصادف عهد السلطان المــولي إسماعيل ، بلغت حوالي عشر سنوات ، أي ما يقارب من خمس الفترة . 55/10.

و في الــفترة ما بين 1727و 1757 و التي تصادف فترة الاضطرابات ، عـــرف فـــيها الجنوب المغربي و المغرب بشكل عام أطـــول مدة مـــن الجفاف . فقـــد حــل بالمغرب جفاف دام سنتين (1147/1734) ثم عاد من جديد سنة 1149/1736 و اســتمر إلى سنة 1153/1740 مع توقف نسبي سنة 1152/1739 ، ثم ما لبث أن عاد من جديــد 1155/1742(24).

وأكـــدت مراسلة من Montanié أحد موظفي البحرية الفرنسية بجبل طـــارق المــؤرخة في 16 أكتوبر 1742 على انتشار آثار هذا الجفاف في ســـوس حيـــث " إن مـــرض معد انتشر في كل المغرب إلى سان كروا [أكادير] في بلاد البربر لكنه لم يصـــل بعد إلى تـــطوان "(25). ثم بعد سنتين من ذلك سيعم كل مناطق المغرب في بضعة أشهر. واستمر إلى سنة 1744/ 1157 (26). ثم ما لبث أيضا أن عاد مرة أخرى سنة 1159/1746 حيث " وصل في هذه السنة [1159] الــوباء لسوس الأقصى "(27). واستمرت كذلـــك في السنة الموالية (1747) . وفي هـــذه الحالة " فإن نقطة الانطلاق جاءت من الجنـــوب 1160 في أكادير وآسفي ، وذلك قبل أن يمتد في السنة الموالية إلى مركزين جديدين وهمـا مراكش وتافيلالت .."(28).

و ابتدا من سنة 1163/1749 سيحل بالمغرب أخطر جفاف ، لما صاحبه من فتن وموت واضطراب ، ولكونه استمر أربع سنوات متتالية . وعنه يقول الضعيـــف : "وفي سنة ثلاث وستين ومائة وألف 1163 هو عام [اليبسة] [السيب] وظهر فيها الطـــاعون وفشا في المغرب ، وفي سوس، وبلغ الموت في اليوم الواحد بفاس ما يزيد على ثلاثمائـــة إنسان في اليوم الواحد ، وربما بلغ أزيد من ذلك ، وفني به خلائق عديدة لا تحصى نسأل الله السلامة والــعافية وحبس المطر وعطش الزرع النابت (...) واستمر الغـــلاء إلى أن

دخلت ستة أربع وستين ومائة وألف 1164"(29). و في سوس مات بهـــذا الوباء النـــاتج عـــن الجفاف خلق كثير ، لم يسلم منه العلماء ، و به "توفي شهيدا (...) [محمد بـــن إبراهيم الهوزالي] سنة 1162."(30)

ولعل هذا الجفاف حل بسوس مبكرا إذ ظهر منذ سنة 1748/1162 واستمر إلى نهاية سنة 1166/1752. وعن هذا الطاعون يتحدث Chenier(1787) قائلا: " إن الطاعون الـــذي خرب أقاليم المغرب في عهد المولى اسماعيل ، أدى أيضا إلى خراب آخر، تحت حكم المولى عبد الله حيث انتقل إليه سنة 1752"(31) .

جدول يبين نسبة السنوات الجافة والغير الجافة حسب بعض المصادر التاريخية

ما بين 1728–1757

السنوات	السنوات الجافة	السنوات الغير الجافة
1728		+
1729		+
1730		+
1731		+
1732		+
1733		+
1734	–	
1735	–	
1736	–	
1737	–	
1738	–	
1739	–	

1740	–	
1741		+
1742	–	
1743	–	
1744	–	
1745		+
1746	–	
1747	–	
1748		+
1749	–	
1750	–	
1751	–	
1752	–	
1753		+
1754		+
1755		+
1756		+
1757		+

من خلال هذه المعلومات المتعلقة بالجفاف في هذه الفـــترة، يمكننـــا القـــول إن فـــترة الاضطرابات هي التي عرفت نسبة من سنوات الجفـــاف والأوبئـــة في القـــرن الثـــامن

عشر.حيث أن من بين ثلاثين سنة (1757/1727) التي تشكل هذه الفترة، أحصينا منـــها ستة عشر سنة، من سنوات الجفاف، أي أكثر من النصف 30/16.

أما في العهد المحمدي الذي يمتد من سنة 1757 إلى سنة 1790 فإنننـــا نجـــد أن سنوات الجفاف أقل من الفترة السابقة ، لكن هذه الفترة عرفت أطول مرحلة جفـــاف ومجاعة ، امتدت سبع سنوات . و "تحدثت المصادر المغربية عن هذه المجاعة ، فوصفتـها ب " المجاعة الكبيرة" ، وقدمت عنها فصولا رهيبة (...) أما أسبابها ، فترجع الى السنوات العجاف وتكالب أسراب الجراد ، ..."(32) . ويقول عنها Chénier "..[بعد ثورة المولى اليزيد 1778] أصبحت الخزينة منهكة لم تعد تقدم رواتب الجند إلا بصعوبة ، بينما انتشر الجراد في البوادي في سنة 1779 كما توالت ثلاث سنوات من الجفاف والـــتي عمقــت البؤس والفقر لم تترك للسكان إمكانية لتلبية حاجياتهم الضرورية "(33). ويشير أيضا إلى أن الجراد عاد إلى الظهور من جديد ، في الجنوب .(34) . وفي سنة 1780 اشـــتد الضيــق بالناس حيث " ... أصبح السكان يهيمون في البوادي بحثا عن الجذور لاســـتهلاكها ... ولقد شاهدت قرويين على الطريق والشوارع ماتوا وحملوا على ظهور الحمير لدفنـهم ... ورجال يبيعون أطفالهم ... وقد رأيت نساء وأطفالا يجرون وراء الجمال للبحث عن بعض حبوب القمح في فضلاتها ويلتهمونها بشراهة"(35)، ثم بعد ذلك يتوقف الجفاف حســـب النصوص، التي لم ترد أي خبر عن سوء الأحوال، إلى سنة 1790 حيث " اندلعت مجاعـــة وكوليرا ... ونتجت عنها بالنسبة للجنوب تخريب لعدد كبير من القرى حيث الآثار مـــا تزال بادية إلى الآن" (36) . نستنتج أن نسبة فترة الجفاف في هذه الفترة قليلة نسبيا إذا مـــا قورنت بالفترة السابقة . فمن خلال سبعة وأربعين سنة التي تشكل فترة سيدي محمد بـــن عبدالله ، منها فقط ثمان سنوات من الجفاف أي 47/8 . و ستمكن هـــذه الســـنوات السكان من ادخار نسبة من الموارد الضرورية من ادخار نسبة من المـــوارد الضروريـــة استعدادا لسنوات الجفاف المستقبلية.

جدول يبين السنوات الجافة في الجنوب المغربي حسب بعض المصادر التاريخية

ما بين 1792/1757

السنوات الجافة	السنوات الغير الجافة	السنوات الجافة	السنوات الغير الجافة
	1757 إلى 1774		1778
1775		1779	
1776		1780	
1777		1781	
		1782	
			1783 إلى 1789
		1790	
		1791	

وفي الفترة السليمانية (1792–1822) فإن المصادر عادت لتتحدث عن الظروف المناخية . فمباشرة بعد استلام السلطان المولى سليمان السلطة ، ذكرت المصـــادر [أن " المســغبة حلت [بالمغرب] سنة 1793/1208 "(37). إلا أن أخطر جفاف عرفته هذه الفترة هو ذلك الذي حل سنة 1799 حيث "يخبرنا الضعيف بأن الناس خرجوا لإقامة صلاة الاستســـقاء في 5 رمضان 1213 / 10 فبراير 1799 ..."(38). و نتج عن هذا الجفاف وباء امتـــد إلى سوس خلال غشت وسبتمبر من نفس السنة ، وتوفي بسببه خلق كبير(39) . وعنه يخبرنـــا القنصل الفرنسي بالصويرة بان هناك " طاعون ناتج عن المجاعة (...) وهو يشبه طـاعون 1752 (...) وأن العلاقات التجارية مع أوربا قد قطعت واعتقد أننا سنلتزم بيوتنـــا"(40) و في سنة 1810/1225 هاجم الجراد الجنوب المغربي(41) . وفي سنة 1814/1230 نستنتج مـن شكاية أحد المراكشين إلى السلطان المولي سليمان سنة 1230 حلول وبـــاء غريـــب (42).

ونجد في مراسلة من نفس السلطان الى القايد عياد مؤرخة في 21 شوال الابرك عام 1234 /1818 ما يــلي :

" خالنا القايد عياد سلام الله عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبعد نـــأمرك أن تجمـــع أخوالنا الاودابة وسردهم لما عفاهم الله من هذا الوباء "(43). ويقول الزياني عـــن هــذا الجفاف والوباء "انتشر (الوباء) في تلك السواحل (طنجة) ومنـــها شــاع في الحواضـــر والبوادي الى أن بلغ فاس ومكناس واستمر و بقي العام إلى تمامه "(44). وقد امتـــد إلى سوس في صيف 1819 وفي شتاء نفس السنة (45). ولعل آثار هذا الجفاف اســـتمرت الى سنة 1820 في سوس والجنوب المغربي عامة .

جدول يبين السنوات الجافة في الجنوب المغربي حسب المصادر التاريخية

ما بين 1822/1792

السنوات الجافة	السنوات الغير الجافة	السنوات الجافة	السنوات الغير الجافة
1793		1799	
	1794	1800	
1795		1801	
	1796 إلى 1798		1802 إلى 1809
		1810	
			1811 إلى 1817
		1818	
		1819	
		1820	
		1821	

نستنتج من خلال هذه المعلومات ، أن نسبة سنوات الجفاف في الفترة الســليمانية مهمة ، إذ تصل إلى الثلث . فقد أحصينا حوالي عشر سنوات ، من أصل ثلاثين ســـنة

التي تشكل فترة عهد المولى سليمان . أي 30/10 . وهي نسبة كبيرة ، كان لها الأثر البالغ في الاحداث بالمنطقة .

و ما يعزز هذه الإحصائيات التقريبية ، تلك الدراسة التي قام بها أحد الباحثين حول الوضع المناخي بالمغرب في القرن التاسع عشرو خلص إلى القول بأن« ...التدقيق الذي قمنا به ، والذي يهم 106سنوات ، من 1807إلى 1912 حصلنا ، في الشمال كما في الجنوب ، على سنة واحدة على إثنين (2/1) جيدة أو مرضية ، وسنة على ثلاثة (3/1) متوسطة أو ضعيفة وسنة أخرى على خمسة (5/1) رديئة "(46).

و ينحو شروتر نفس المنحى ملخصا الوضعية المناخية بالجنوب المغربي بقوله : " ...وفي فترة دامت قرنا من الزمن تمتد بين 1795 إلى 1895 ، توجد دلائل عن حوالي 40 سنة من قلة المؤنة أو الجفاف في جنوب المغرب . "(47) أي ما يناهز 40./. من السنوات كلها سنوات عجاف وجفاف، وسنوات القلة والكفاف.

و بالرغم مما ورد في النصوص و المصادر حول الجفاف ، فإنه لابد من الإشارة إلى أن مفهوم الجفاف يبقى نسبيا ، يختلف من مصدر إلى آخر. فما هو الجفاف بالنسبة للريفي ، ليس هو نفس الجفاف بالنسبة للزياني و الضعيف والناصري ، سواء على مستوى الزمن وعلى مستوى المجال و من جهة أخرى ، فإن المؤرخين أنفسهم يتصرفون في نقل أخبار الطبيعة حسب موقفهم الذاتي من سلطان تلك الفترة . و يمكن أن يتم إبراز فترة على حساب فترة أخرى . و كل هذا يجعل من هذه الاحصائيات المتعلقة بسنوات الجفاف ، إحصائيات نسبية و قابلة للتغيير كلما حصل تقدم في هذا المجال

صفوة القول أن عامل الجفاف و ندرة المياه ، شكلا عائقا كبيرا أمام تقدم المجتمع المغربي حيث لم يستطع توفير تراكم بدائي للرأسمال و الادخار اللذين سيمكناه من الانتقال من نمط عيش عتيق إلى نمط عيش أكثر تطورا و أكثر تحكما في الظروف الطبيعية

أمام هذا الإكراه الشديد ، واجه هذا المجتمع الجنوبي قلة المياه باساليب متعددة خلفت لنا ما يمكن تسميته بأدبيات تدبير المياه . و يمكن أن نأخذ نموذجين من

تلك الأدبيات ، تقربنا من الطريقة التي تعامل بها الإنسان في الجنوب المغربي مـع هـذه المعظلة الطبيعية .

تنظيم استغلال المياه من خلال وثائق محلية

1.2 – نص وثيقة ساقية تملالت بتارودانت (1670/1091)

" الحمد لله نسخة من رسم نصه ، الحمد لله صلى الله على سيدنا محمد و ءالـه وسـلم تسليما . اتفق أعين أهل الساقية المشتهرة بتملالت بين يدي الفقيه (...) قاضي الجماعـة بالحضرة السوسية تارودانت (...) الله و حرسها على اتباع ما أبرمه صلحاء من تقدم و درج من الفقهاء بالمدينة المذكورة و قاضيها الأعدل أبي عثمان سيدي سعيد بـن علـي الهوزالي عن أمر موالينا الشرفاء جدد الله عليهم (...) رحمته بأن لا يرد مـاء السـاقية المذكورة فيما حازه سهب الباقي للوادي في أعلاها إلى الموضع المذكور لا يحـرث فيـه المازوزني و لا البحائر إلا لمن كان هناك شجر فتسقى لا غير و ما حازه الحد المذكور يرد به من شاء من أرباب النوب مصرفا من الماء فقط فيما دون سور المدينة للحراثة بـه إلى النداء الأول فيرسله للمساكين أهل الأعلاى و هم لا يحرثون به بياضا خـارج المدينـة بتمصضاوت و لا بغيرها بل بالسقي عرساقم و أشجارهم حسبما اقتسموه فيما بينـهم و رضوا به إلا لمن شاء تعويض ما أصابت قرعته بسقي زرع أو حرث بأن استغنت عن الماء أشجاره فله ذالك فيما خلص له منه . عند انقضاء حظوضهم و انصبائـهم رعيـا للمصلحة العامة اعتمادا على ما أصله من ذكر من الخاصة (..) فيما بينهم بعـد رفـع الـنازلة إليه و اجتماعهم عـليه و ترددهم على ذلك للوجيه الأفضل الماجد الـقايد أحمد الغرناطي حفظه الله و وفـقه فالزمه فصلها و أراحـة أهلـها بـالموجب و الـقانون الأول السابق باستطراد فيما تـقدم كملها به و تم و شهد عليه سـوده الله ؟ و عليهم بما فيه عنهم و هـم بحال كمال (...) و بـأواخر ذي حجة متم إحـدى و ثمانين و ألف عبد الله محمد بن عبد الـرحمان التلمساني غفر الله له به و جبر حاله بمنـه (...) اصله و أسفله في ربيع النبوي عام 1235 (48).

يرجع تاريخ كتابة هذه الوثيقة إلى أواخر ذي الحجة 1081/ 1670. و هو تـاريخ يصادف مرور عشرة أشهر على سيطرة السلطان المولى رشيد على المدينة ، إذ دخلـها في « الثامن عشر من صفر عام إحدى و ثمانين و ألف (1081)" (49).

و تتميز الظروف المصاحبة لكتابة هذه الوثيقة ، بعودة الناس إلى مواطنهم بعـد الحروب التي صاحبت سيطرة هذا الأمير على تارودانت حيث ذكر الضعيف أنه قتل بهـا « ... نحو ألف ونصف على ما قيل.."(50). و لابد أن يصاحب ذلك نزوح السكان عـن تارودانت و ضواحيها . و بعد مرور عدة أشهر من ذلك بدأ الناس يعودون إلى مواطنـهم و قد أدت تلك العودة إلى الإفراط في استغلال مياه هذه الساقية الواردة في الوثيقـة ، و التوسع في استغلال الأراضي المزروعة ، في محاولة من السكان استرجاع ما ضاع منهم في سنوات الحروب. و لا شك أن ذلك سيؤدي إلى وقوع ا ضطرابات و صراعـات بـين الناس . و بهدف الحيلولة دون وقوع ذلك بين سكان المدينة و محيطها اجتمـع أعيـان أهل المنطقة ، على تنظيم استغلال مياه هذه الساقية ، اعتمادا على التقاليد الموروثة لـدى السكان و ما درج عليه فقهاؤهم . و مضمونها العام ، هو اتفاق أعيان المنطقة التي تمـر بها ساقية تملالت ، على أن لا تستغل مياه تلك الساقية في الأراضي التي حازها الـواد . و أن لا تتم فيها الزراعة و إنشاء البساتين . و ذلك حفاظا على ما يبدو على المياه خاصـة في فصل الصيف حيث يقل صبيب الساقية ، أو في فترات الجفاف التي تهدد السـكان . و قد اتفق الأعيان على أن لا تسقى في تلك الأراضي إلا الأشجار ، أما القيام بزراعة أخرى فقد تم منعها . غير أن الإتفاق استدرك بأنه يمكن لمن استغنت أشجاره عن الماء فله ذلك ؛ إذ لا يمكن لأي شخص تجاوز حصته من المياه .

و لكي تكون للوثيقة قوة المشروعية و مصداقية التطبيق ، تعمد أعيان وكتـاب الوثيقة إلى الرجوع إلى ما درج عليه القضاة المحليون ، و في مقدمتهم أحد أعمدة القضاء في تارودانت ، في ذلك القرن ، و هو أبي عثمان سيدي سعيد بن علي الهوزالي(51).

و إنطلاقا مما سبق من رصد أولي لدورات الجفاف في المغرب ، يبدو أن ما نقلـه لنا الجغرافيون عن طبيعة المغرب في الفترة القديمة ، أن المياه كانت وفيرة بفضل المنـاخ المطير و لعل مشكلة المياه لم تطرح بحدة إلا في نهاية العصر الوسيط ، حيث إن الجفـاف بدأ يدب في المغرب مع بداية القرن الرابع عشر ؛ إذ عرف المغرب ابتداءا مـن سـنة 1321 سلسلة من سنوات الجفاف استمرت خمس سنوات من دون انقطاع . و هي الـتي فسر بها بعض الباحثين الصراع بين الأسافل و الأعالي في منطقة فاس في تلك الفترة .(52)

و انطلاقا من هذه المعطيات ، يمكن القول أن السكان بدأوا يشعرون بمشـكل ندرة المياه ابتدءا من منتصف القرن الرابع عشر و استفحل الأمر في القرن الخامس عشرثم أصبح عبارة عن دورات من فترات الجفاف بعد ذلك.

و قد عرف سوس خلال القرن الخامس عشر ، مرحلة مضطربة تراجع خلالهـا العمران و الانتاج ،و يعتقد البعض أنها ناتجة أساسا عن سيطرة عرب معقل على المنطقـة ،غيرأنه لا يمكن تفسير هذا التراجع اعتمادا على العنصر البشري فقط . و في اعتقادنـا أن حلول موجات من الجفاف و تراجع المياه ساهم كثيرا وبشكل أعمـق في اضطـراب الأوضاع . و لم يعد الإستقرار و الهدوء إلا بظهور الدولة السعدية و عودة سـنوات الرخاء . و تمكنت معظم القبائل السوسية من العودة إلى مواطنها الأصلية .

و نتج عن ذلك احتكاك و اشتداد الصراع حول الأراضي الخصبـة المحيطـة بالأنهار . و شكلت المياه في هذا الصراع عنصرا استراتيجيا . فمن يملك مصادر الميـاه يتحكم في مصير قبيلة بأسرها . و قد أزعج ذلك فقهاء و أعيان القبيلة ؛ مما دفعـهم إلى التفكير في خلق و إنشاء قوانين عرفية تنظم العلاقات بين الناس في مسألة تدبير المياه ، و التي أصبحت مادة نفيسة ، تحولت بعد ندرتها إلى مادة قابلة للتملك . و نجد مسـتويين من تمليك المياه :

مستوى القبيلة : حيث تسعى القبيلة إلى تمليك المياه الضرورية لتلبية حاجيات أفرادها من مصادر مشتركة مع قبيلة أخرى . كما أنها تقوم بجمع مياه الأمطـار في مسـتودعات

جماعية (تنوضفي) . و هذه المياه ذات التمليك الجماعي يستغلها أفراد القبيلـــة بشـــكل جماعي و بحسب قوانين عرفية محددة .

مستوى الأفراد : في هذا المستوى يملك الأفراد قسطاً من المياه ، بوثائق تورث أب عـــن جد تثبت ملكيتهم لجزء من المياه في منطقة معينة أو عين معلومة ، و تســـتعمل القبيلـــة لقياس كمية من توزيع المياه على أفراد القبيلة وحدة "تناست" المعتمدة على الوقت و على النوبة (توالى) . و تقاس بتناست أو بالوقت ، وتسمى (تولا) النوبة . و للفرد حـــق التصرف في قسطه هذا كما يشاء ، حيث ينطبق عليه ما ينطبق علـــى بـــاقي ممتلكاتـــه الأخرى من بيع و شراء و رهن و بيع بالثنيا أو غيره .

وثيقة قسمة المياه بأكنسان 1792/1207

و تبين وثيقة أخرى تهم قسمة ماء الولائج بين أهل تزضط و أهل أكحان بقبيلة أكنسان بنواحي تارودانت ، الطريقة التي يتم بها توزيع المياه بين القبيلتين ، و نجد ضمـــن ما نجد في الوثيقة :

« هذا قسمة الماء الولائج بين أهل الكحان و أهل تزضط الذي تدور نوبته على أربابـــه على عشرة أيام الأول منهم سعيد بن محمد نيت عبد الكريم بنوبتين و نصـــف و الفقـــير محمد بن علي و اتفرست بنوبة و نصف و نوبة أيضاً عند سعيد بن محمد و الفقير محمـــد بن علي ... و ستة وخمسون قصبا عند سعيد بن محمد (...) و قصب فيه ســـتة أدرع و ستة أصبع و كل نوبة بمأتين قصباً و يليه نص آخر الحمد لله وحده ابتاع بحول الله و قوته أولاد الحسن بن هم من البائع لهم جماعة المذكورة أعلاه نصف نوبة من الماء المذكور ببيـع التنيا و الإقالة بثمن قدره خمسة أواق *(...) ذي القعدة عام 1207 ... ».(53).

نلاحظ من خلال هذه الوثيقة أن المياه في هذه المنطقة ، أصبحت خاضعة للملكية الخاصة تتناقص كميتها بفعل التوارث ، أو البيع ، كما يمكن أن تزداد كميتها عند شخص معـــين بالشراء . و هكذا لاحظنا أن الكمية تبدأ بعدد النوبات ثم النوبة يليها النصف ، ثم ننتقـــل إلى وحدة أقل منها يطلق عليها القصبة (تغانيمت) .

و نـــلاحظ من خلال ذلـــك أن المجتمع تمكن مـــن استنباط وحدات خاصة بـه لقياس المياه و توزيعه . و يدل ذلك على الأهمية التي يعطيها للمياه من جهـــة ، و علـــى ضرورة تسييره بدقة من جهة أخرى .

و نستنتج أيضا من سعر النوبة من المياه التي تساوي خمسة أواق ، يقترب مـــن نصف ثمن هد القمح في وقت المسغبة (وصل سعرمد القمح في الرباط وسلا في شــــهر شوال 1205/يونيو –يوليوز 1791، إلى 11 أوقية للمد ."(54)

و لا يستقر سعر المياه في مستوى ثابت ، حيث يرتفـــع و ينخفـــض حســـب السنوات المطيرة و الجافة . و هذا السعر الوارد في هذه الوثيقة يهم – على ما يبدو فـــترة متوسطة ، حيث مرت سنتين على جفاف 1790 ؛ و الذي وصفـه Robert Montagne بأنه أدى « تخريب تام لعدد من القرى حيث الآثار ماتزال باديـــة إلى الآن »(55) . و لا شك أن كتابة هذه الوثيقة كتبت تحت هاجس و آثار جفاف و مجاعة 1790.

من خلال هذه المعطيات يمكن استنتاج الملاحظات التالية :

1. – إن المغرب و الجنوب المغربي عرف تغييرات مناخية في اتجاه الجفاف ابتـــدءا مـــن النصف الأول من القرن الرابع عشر أثر على علاقة الإنسان مع محيطه الطبيعي .

2. – إن الإهتمام بتدبير استغلال المياه والري في الجنوب المغربي ، واكب ازدياد الجفاف ويعكس جانبا من جوانب التسيير الذاتي للمجتمع . كالتسيير الجماعي للقبيلة (أمغار) و التسيير الإجتماعي /الإقتصادي (إكودار) و التسيير التعليمي (المدارس العتيقة).

3. – انتقال ثروة المياه من ملكية مشاعية إلى ملكية خاصة تتوارث أب عن جد ، شأنها في ذلك شان الأراضي العقارية .

4. – تمكن المجتمع المغربي في الجنوب المغربي من تحقيق توازن بـــين الإنســـان و محيطـــه الطبيعي ، يمكن الاستفادة منه وتطويره بهدف المحافظة على التوازن الإيكولوجي في المغرب

الـهـوامـش:

1) — Le Roy Ladurie : Le territoire de l'historien . Ed : Gallimard ; Paris 1973 . P : 427 et 457.

2) — مزين محمد : فاس وباديتها .الجزء الاول ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط . مطبعة المعارف الجديدة 1986 . ص : 69

3) — جرردون إيست : الحغرافيا توجه التاريخ . ترجمة جمال الدين الدناصوري .داز الحداثـة الطبعـة الثانيـة 1982.ص: 43.

4) — Simonneau .A: L'androgyme et les gravures du Haut Atlas . In B. A.M. Tome :VII, 1967

5) — Lohtte .H: Problème saharien ,l'outre ,la marmite le chameau ,le delou l'agriculture, le nège le palmier. In B.A.M. Tome VII, 1967.

6) — ناعمي مصطفى : الصحراء من خلال بلاد تكنة . منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي . عكاظ 1989 . ص: 19.

7) — Timoule Abdelkader : Le Maroc à travers les chroniques maritimes . Tome 1. 2ème éd. 1978. Rabat.

8) — إيست جروردن : الجغرافيا توجه التاريخ . المصدر السابق . ص: 51.

9) — زمامة عبدالقادر : المغرب في جغرافية ابن حوقل . مجلة البحث العلمي . عدد 19 يناير /فبراير 1972.

10) — مؤلف مجهول : الإستبصار في عجائب الأمصار نشر سعد زغلول عبد الحميد . دار النشر المغربية .البيضاء 1985.ص:211.

11) — Juan Venet Ginès : Marruecos en la geografia de Iben Said Al magribi In tamuda anio 1 Teruan 1953 Semestre II, p. 249.

12) — جوردون أيست : الجغرافيا توجه التاريخ . المصدر السابق . ص: 54و56.

13) — Rosenberger .B et Hamid Triki : Famines et épidemies au Maroc aux XVI et XVII, in Hesperis Tamuda. Vol : XIV, 1973, p. 113.

14) — البزاز محمد الامين : تاريخ الاوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط .مطبعة النجاح البيضاء .1992 .ص: 53.

15) — Le Roy Ladurie : op. cité . P : 426 .

16) — التمنارتي عبد الرحمان : الفوائد الجمة في اسناد علوم الأمة . مخطوط كلية الآداب الرباط ، ص: 132.

17) — أنظر في هذا الصدد : الضعيف 161 ص/170/165/162 والزياني :البستان 33ص والريفي :زهر الآكم ص165.

18) — الضعيف محمد الرباطي : تاريخ الضعيف . تحقيق احمد العماري . نر المأثورات 1986، ص.161 — 162 ، 165 وكذلك البستان للزياني ص: 33 . الريفي عبد الكريم بن موسى : زهر الآ كم . تحقيق آسية بن عدادة . المعارف الجديدة 1992. ص: 165.

19) — السوسي محمد المختار : خلال جزولة ، الجزء الثالث . تطوان . ص: 129.

20) — الضعيف : المصدر السابق . ص: 170.

21) — الناصري أحمد السلاوي : الاستقصاء في أخبار دول المغرب .الجزء السابع . البيضاء 1954-1956 ص: 97 .

22) — البزاز محمد الامين : المصدر السابق .ص: 35 .

23) — التاسفتي ابراهيم بن عبدالله : رحلة الوافد . لحظات من تاريخ أدرارن درن (أطلي مراكش) و سوس في المغرب 18/12 تحقيق صدقي علي ازايكو . منشورات كلية الآداب القنيطرة . المعارف الجديدة 1992. ص: 239 .

* لاستخراج سنوات الجفاف تم اعتماد المصادر التاريخية المعروفة : البستان للزياني ، و تاريخ الضعيف ، و زهر الآكم للريفي ، و الاستقصاء للناصري ، و رحلة الوافد للتاسفتي ، و مؤلفات المختار السوسي حول سوس .

* لا يمكن اعتبار السنوات التي لم ترد في النصوص التاريخية على أنها جافة أنها مطيرة و جيدة ، و اكتفينا بوصفها أنها غير جافة مع وجوب التحفظ.

24) — الضعيف الرباطي : تاريخ الضعيف . ص: 247.

25) — Renaut .H.P.J : La peste de Ceuta . 1743/1744 . Société algérienne . Alger , P.6, voir aussi : Les pestes du milieu du XVIII ; Hesperis , 1939 , pp :293-319.

26) — البزاز محمد الأمين : المصدر السابق . ص:53.

27) — الضعيف (محمد بن عبد السلام) الرباطي .المصدر السابق .ص: 270.

28) — البزاز محمد الامين : المصدر السابق .ص: 57.

29) — الضعيف الرباطي : المصدر السابق .ص: 274.

30) — الحضيكي محمد بن أحمد : طبقات الحضيكي . تحقيق وتقديم أحمد بومزكو .د.د.ع. كلية الآداب الرباط 1994 .الجزء الثاني .ص: 117.

31) — Chenier Louis : Recherches .... op . cité . P: 454.

32) — البزاز محمد الامين : المصدر السابق . ص:69.

33) — Chenier L. Recherchers historiques sur les Maures et histoire de l 'empire du Maroc, Paris, 1787, p. 488.

34) — Chenier : op ; cité . p: 495 ; voir aussi ,Lemprière : voyage ...op cité, p.79.

35) — Chenier L : Op . cité . p 498.Voir aussi , Piere Grillon : Un chargé d 'affaires au Maroc .La correspondance du consul Louis Chénier Paris SEVPEN. P : 918.

36) — Montagne R : Un magasin collectif de l'inti Atlas : l'Agadir des Ikonka . Hespreris T:IX. Année 1929 2° et 3° tremestre ; pp :155 .

37) — البزاز محمد الامين : المصدر نفسه . ص: 86.

38) — نفسه :92.

39) — أنظر في هذا الصدد المعسول الجزء 20 ص 246 الجزء 11 ص120 .

40) — Maroc 1798-1799 .C.C. microfilm . folio :287. Arch. Affaires étrangères Françaises.

41) — Nicolas Michel : Economie de subséstances .Le Maroc précolonial .Istitut Français d'archéologie orientale .Le Caire .1997. p: 63 .

42) — وثائق المولى سليمان . الخزانة الحسنية .الرباط .سجل 6925.

43) — نفس المصدر.

44) — الزياني : الروضة السليمانية نقلاً عن البزاز المصدر السابق . ص: 115 .

45) — البزاز محمد اللامين : المصدر السابق . ص: 117.

46) — Nicolas Michel : Une économie de subsistances . Le Maroc précolonial . Institut Français d'archeologie orientale .Le Caire ,1997 .P : 64.

47) — دانييل شروتر : تجار الصويرة . المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب (1844/1886) منشورات كلية الآداب بالرباط . مطبعة النجاح الجديدة . البيضاء .ص: 367.

48) — وثيقة حول استغلال مياه ساقية تملالت بتارودانت مؤرخة في 1081/1670 وثيقة خاصة .

49) — الضعيف محمد الرباطي : تاريخ الضعيف .ص:150.

50) — سعيد بن علي الهوزالي (ت 1001/1591)ولى قضاء الجماعة بالمحمدية نيفا و ثلاثين سنة ، قضاها في تدريس العلوم الشرعية و اللغوية ،(...) و هو صاحب الإجتهادات الفقهية . انظر ذ. حجي محمد: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. الجزء الثاني ص: 407.

51) — بنميرة عمر : قضايا المياه بالمغرب الوسيط من خلال لأدب النوازل . التاريخ و ادب النوازل . منشورات كلية الاداب بالرباط .مطبعة فضالة .1995.

52) — وثيقة لتقسيم مياه بين أهل ترضط و اهل أكحان بأكنسان مؤرخة في 1207/1792و أعيد نسخها في 1233/1817.

* الأوقية وهي لا شك الأوقية السوسية وهي "يختص استعمالها بسوس ، .....ويوجد من هذه الأوقية نوعان :إحداهما كبرى والثانية صغرى . (الأوقية الكبرى كان التعامل بهذه الأوقية منذ زمن سابق للعهد السعدي ولكنها لم تعد في القرن الثامن عشر مستعملة إلا عند القضاة وأعيان الناس ، حيث كانوا يستعملونهـا في فض النزاع بين الناس أثناء افتكاك ألاصول الواردة في الرسوم المتقادمة ..)" وقد استعمـل النص الأوقيـة الصغرى السداسية الثقيلة ......وهي التي يكثر ذكرها في الرسوم ،...)" الوجه هي المزونة وتساوي 0.79غ سنة 1765 فيما يتعلق بهذه المعلومات انظر :افا عمر :النقود المغربية في القرن الثامن عشر أنظمتها وأوزالها في منطقة سوس .منشورات كلية الأداب لرباط 1993 .

53) — البزاز محمد الامين : المصدر السابق . ص: 68.

54) — Montagne Robert : Un magasin collectif : Agadir des Igounga . Hespris .1929